ثالثا: رواد علم الاجتماع (تابع)

كارل ماركس (1818- 1883)

01- نشأته وأهم مؤلفاته:

ولد "كارل ماركس" في 5 ماي 1818 بمدينة (تريف) في بروسيا، وكان واحدا من بين سبعة إخوة لأبوين يهوديين، والده كان محاميا ارتبط بعصر التنوير قرأ لكانط وفولتير، فكان تأثيره على شخصية "ماركس" واضحا،حيث نشأ على الحرية وحب المعرفة، وعندما أرسله إلى المدرسة الثانوية تلقى تعليمه على يد أساتذة ليبراليين، فكان موضع ثناء وتشجيع لتفوقه في الرياضيات والدراسات اللاهوتية، وفي عام 1835 التحق بجامعة "بون" ودرس التاريخ واهتم بالإنسانيات، واندمج في النشاط الطلابي، ثم انتقل إلى جامعة "برلين" سنة 1836 وفيها التقى بفلسفة (هيجل) وبدأ يقرؤها ويلم بها، وفي عام 1839 التقى صديقه الحميم (أدولف ريتنبرج) وكان هذا الأخير من (الهيجيليين الراديكاليين). **(عبد المعطي، 1981،68)**

انظم "كارل ماركس" لـ (الشبيبة الهيجلية) في 1842، والتحق كمحرر بالجريدة (الرينانية) فساعده اشتغاله بالصحافة على أن يتفتح على المجتمع ومشكلاته، وبعد زواجه سنة 1843 من "جني فون وستفالن" التي كرست كل جهودها لحياته وعمله واندمجت معه عاطفيا وأخلاقيا ، حيث كان "ماركس" يعتمد عليها اعتمادا كليا خصوصا في أوقات الكوارث، حتى هاجر إلى (باريس) موطن الحرية الفكرية والسياسية آنذاك لنشر أفكاره ومبادئه، وقد كتب بهذا الخصوص يقول: "إن الجو هنا خانق لا يحتمل في الواقع، فليس من العسير على المرء أن يتذلل حتى من أجل الحرية، لقد سئمت النفاق والغباء وفظاظة الموظفين الرسميين، وتعبت من طأطأة الرأس وابتكار العبارات التي لا خطر منها ولا ضرر من ورائها، إن ألمانيا لم يعد فيها ما أستطيع أن أفعله، إن المرء لا يستطيع أن يكون فيها إلا أن يكون غير أمين مع نفسه". **(بوتل، 82)**

عندما انتقل إلى فرنسا وتنقل إلى بلجيكا التقى بـ "جوزيف برودون" و "فريدرك أنجلز"، شارك في النشاطات السياسية في ثورة فرنسا 1848 وانتهي به المطاف في "لندن" حيث توفي في 14 مارس 1883 .

من أهم مؤلفاته: (**البيان الشيوعي**) مع زميله "أنجلز" سنة 1848، ومجلد (**رأس المال**) سنة 1867، والعديد من المقالات مثل (**مدخل إلى نقد فلسفة هيجل في الحق**)، (**حول المسألة اليهودية**)، (**العائلة المقدسة**).

02- نظرة كارل ماركس لعلم الاجتماع:

رفض **"ماركس"** استخدام تسمية (علم الاجتماع) لارتباطها بالفلسفة الوضعية التبريرية التي روج لها "**أوجيست كونت**" لأنه في معظمه يتسم بصفة التبرير لا التفسير العلمي بالمحافظة لا النقد العلمي الاجتماعي، فضلا عن مزج التحليل السوسيولوجي بمحاكاة ومماثلة بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية، ولهذا فضل تسمية العلم بـ (علم المجتمع)، وحدد موضوعه الأساسي بدراسة المجتمع ا إنساني ككل تاريخي متغير، من خلال دراسة القوانين الاجتماعية لتطور التكوينات الاجتماعية والاقتصادية، وبحث مختلف العلاقات الداخلية لجوانب الحياة الاجتماعية، التي تأتي في مقدمتها العلاقات الإنتاجية وعلاقات الملكية، ويتحدد أيضا بالوجود الاجتماعي الموضوعي.

يرى "ماركس" أن وظائف **"علم المجتمع"** وأدواره تتركز في وظيفة علمية وأخرى مجتمعية، كل منهما تثري الأخرى وتنميها وتطورها، فمسعى البحث السوسيولوجي الماركسي هو الكشف عن القوانين العامة والقوانين النوعية للتطور الاجتماعي ، الذي يتجسد في توفير أرضية علمية للتنبؤ بالمسار الاجتماعي ويفيد في إعادة النظر فيما هو قائم وما يمكن أن يؤول إليه لو ترك على تلقائيته وما يقتضيه الأمر من تخطيط وتدخل له لتجاوز تناقضاته، سواء ما يتعلق بالاستغلال والاغتراب أو أي صورة أخرى من صور استلاب الإرادة الإنسانية المبدعة، ولهذا كان "ماركس" حريصا على تأكيد أهمية إسهام العلم والبحث في إحداث التغيير المقصود .

03- الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي:

فرق "ماركس" بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي في إسهام متميز لعلم المجتمع، ونقله من المرحلة الفلسفية إلى النظرية الاجتماعية ، وبهذا قدم إجابة سوسيولوجية للسؤال : أيهما أسبق الوجود أم الوعي؟ حيث يذهب إلى أن أسلوب الإنتاج هو الذي يحدد الطابع العام للعمليات الاجتماعية لأن وعي الناس ليس هو الذي يحدد وجودهم، بل العكس يتحدد وعيهم بوجودهم الاجتماعي.

يرى "ماركس" أن الوعي يبدأ بمجرد أن يبدأ الإنسان في إنتاج وسائل العيش، تلك الوسائل التي تتحدد بداية بظروف الطبيعة وإمكانياتها، وعليه فعندما ينتج الناس هذه الوسائل يبدؤون في إنتاج حياتهم المادية والعقلية، وهذا يعني أن **الإنتاج** صورة **النشاط الإنساني**، وعليه فإن ذلك يحدد المرحلة التاريخية من تطور المجتمع، وبخاصة ملكية وسائل الإنتاج، عندئذ تتحدد الطبقة عن طريق الملكية وعن طريق قوى الانتاج والتقسيم الاجتماعي للعمل حسب ما تسمح به المرحلة التاريخية، ويؤكد "ماركس" هذا بقوله: "دعني ألخص لك أنه كلما نما الإنتاج الرأسمالي نما تقسيم العمل واتسع استخدام الآلات، وكلما نما تقسيم العمل واستخدام الآلات اتسعت المنافسة بين العمال واتجهت أجورهم نحو الانكماش"، وتلك هي الظروف الموضوعية لنشأة الطبقة العمالية.(**عبد المعاطي، 1981، 71**)

04- المادية التاريخية والمادية الجدلية:

يتألف الفكر الماركسي من مكونين أساسيين هما: **المادية التاريخية** التي تمد حسب رواد الفكر الماركسي بإطاره الأساسي الذي يقدم لها العلم إجابة علمية على المسألة السوسيولوجية المعرفية الأساسية، وهي مسألة العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، هذا الوجود الذي تعده المادية التاريخية واقعا موضوعيا مستقلا عن الوعي، وعليه فإن هذه الأخيرة هي التي تشكل الإطار العلمي لعلم المجتمع الذي يدرس القوانين العامة للتطور الاجتماعي وصور حدوثها وتجسيداتها من خلال النشاط الاجتماعي التاريخي للإنسان.

أما **المادية الجدلية** فتعتبر الإطار الفلسفي العام للعلم ، إذ يعتبر "ماركس" الحقيقة الجديدة نسبية لا تلبث أن تقابل بهجوم من حقيقة مضادة هي "النقيضة" لقضيتها، ثم يتبع ذلك أن تدمر كل منهما الأخرى وهكذا دواليك...فتستمر العملية إلى ما لا نهاية بمجموعة من التأثيرات أكثر تعقيدا، حتى تتأثر القضية بنقيضتها في نوع من حرية تبادل الآراء ومن ردود الفعل ومن الاستدلالات، فالجدلية المادية ليست مباراة جدلية لفظية بل أصبحت نوعا من التحليل الوضعي للقوى خاصة في مواجهة الأفعال المتبادلة.

05- البناء الفوقي والبناء التحتي:

تعتمد منظمة المجتمع على وسائل الإنتاج وأشياء كالأراضي والموارد الطبيعية والتكنولوجيا تحديداً هامة لإنتاج السلع المادية وعلاقات الإنتاج، بعبارة أخرى العلاقات الاجتماعية التي يتشاركها الناس ليكتسبوا ويستخدموا وسائل الإنتاج هذه الأشياء معاُ تؤلف طريقة الإنتاج، وقد ميز ماركس حقب تاريخية من ناحية طرق الإنتاج المختلفة، فرق بين **البناء التحتي** و**البناء الفوقي** فالأول يرمز إلى النظام الاقتصادي، بينما الثاني يرمز إلى النظام السياسي والثقافي، واعتبر ماركس هذا عدم تطابق بين البنية التحتية (الاقتصادية) والبنية الفوقية (الاجتماعية) كمصدر رئيسي للصراع والاضطراب الاجتماعي وعلى الرغم من تأكيد ماركس على نقد الرأسمالية ومناقشة المجتمع الشيوعي الجديد الذي ينبغي أن يحل محلها، إلا أنه دافع عن نقده الصريح للرأسمالية برؤيته كمجتمع أفضل مقارنة بسابقاته (العبودية والإقطاعية).

06- الطبقات الاجتماعية:

الطبقة هي مجموعة من الأشخاص في المجتمع يحدد حياتهم تمتعهم بوضع اقتصادي مشترك، أما وضع الفرد الذي يقوم به في عملية الإنتاج الاجتماعي فيعتمد هذا بدوره على طابع القوى الإنتاجية ودرجة نموها، ويتخذ "ماركس" من الطبقة الاجتماعية مفهوما أساسيا للتحليل الاجتماعي؛ تؤدي ملكية وسائل الإنتاج إلى ظهور طبقتين اجتماعيتين تعيش كل منهما في صراع مع الأخرى هما: **الطبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا (العمالية)**،والعمل الذي تؤديه هذه الأخيرة يقدم فرقا كبيرا بين ثمن

المنتجات وأجورها، وهذا الفرق هو المصدر العام لأرباح الرأسمالية، حيث يوضح ماركس أن تضخم الفوائد والأرباح وحرية المنافسة تؤدي إلى الاحتكار الاقتصادي، الذي بدوره يؤدي إلى المفارقات الاقتصادية وتصارع الطبقات.

07- الصراع الطبقي:

صراع الطبقات الاجتماعية هو مفهوم رئيسي في الفكر الماركسي ، التي تسعى لمُراعاة القضايا التاريخية والتوترات الاقتصادية داخل مجتمع مُنقسم إلى طبقات اجتماعية معادية، ويعتبر " كارل ماركس" و"فريدريك انجلز" هم اللذان أكدا الانتشار العالمي لهذا المفهوم، حيث يعتبرانه محرك التغيرات الاجتماعية والتاريخ الحديث، إذ يقول "ماركس" لا يزال يُفَسر تاريخ جميع المُجتمعات الحالية بتاريخ صراعات الطبقات."

كما يرى "ماركس" أن الرأسمالية تشكل بطبيعتها نظاما طبقيا تتميز العلاقات الطبقية فيه بالصراع، ورغم أن الرأسماليين والعمال يعتمد كل منهما على الآخر، لأن الرأسماليين يحتاجون إلى قوة العمل والعمال يحتاجون إلى الأجور، فإن هذه المعادلة تعاني خللا فادحا، فالعلاقات الطبقية في هذه الحالة تتميز بالاستغلال، لأن العمال لا يتمتعون بأي قدر من السيطرة على عملهم في الوقت الذي يقوم فيه أرباب العمل بجني الربح عن طريق تملكهم حصيلة عمل العمال، ويعتقد "ماركس" أن صراع الطبقتين حول الموارد الاقتصادية سيزداد بمرور الوقت.(جدنز، 2005، 69)

08- الدعائم المنهجية عند ماركس:

تتميز طريقة ماركس في التفكير، أي الطريقة المادية الجدلية والتاريخية بسمات جوهرية ثلاثة هي أنها **مادية**، وهذا يعني الإقرار بوجود الأشياء والظواهر موضوعيا، بغض النظر عن إرادة الإنسان ووعيه بها، و أنها **جدلية**، بمعنى أنها تنظر إلى الأشياء والظواهر على أنها ظواهر متناقضة وفي تغير مستمر، وتخضع لنوع من الترابط والشمولية، يؤثر ويتأثر بعضها بالبعض الأخر ، و أنها **تاريخية**، وهذا يعني من جهة أن الوجود الموضوعي للأشياء والظواهر هو وجود تاريخي متغير، يختلف من حيث زمن وجوده، ومن جهة ثانية إن معارفنا عن الأشياء والظواهر ذات قيمة تاريخية وحسب.

(**بودواهي**، http://www.ahewar.org/debat/s.asp?t=4&aid=286493)

وعليه تقوم منهجية البحث السوسيولوجي عند "كارل ماركس" على منهجين أساسيين هما: **المنهج الجدلي والمنهج التاريخي** مع عدم استبعاد أهمية الطرائق البحثية التي كانت تستخدم في زمانه كالاستبيان، حيث أنه أسهم في تطبيق صحيفة استبيان حول أوضاع العمال، وقد ساعده المنهج التاريخي على كشف القوانين العامة والنوعية للتطور الاجتماعي، كما ساعده المنهج الجدلي على التمييز في الحياة الاجتماعية بين الموضوعي والذاتي، العام والخاص، الضروري وغير الضروري، وقد ساعد هذا على إكساب علم المجتمع طابعا علميا ونوعيا في الوقت ذاته. (**عبد المعطي، 1981، 72**)